

- الفصل الثاني :

النقد الأدبي في عصر صدر الإسلام

كان الشعر سلاحاً من أسلحة المعركة التي دارت رحاها بين الإسلام وخصومه بعد هجرة رسول الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه إلى المدينة. وقد تولى الرد على شعراء قريش ثلاثة من شعراء الأنصار؛ وهم: حسّان بن ثابت؛ وعبد الله بن رواحة؛ وكعب بن مالك .

كان ثلاثتهم يُنافحون عن المهاجرين والأنصار؛ ويهجون كفار قريش؛ ولكن هؤلاء كانوا يجزعون من شعر حسّان ما لا يجزعون من شعر صاحبيه؛ لأنّ حسّان كان يغمز أنسابهم وأحسابهم؛ ولم يكن العرب في الجاهلية يعتزّون بشيء كما يعتزّون بالأنساب والأحساب؛ فلما دخل كفار قريش في الإسلام كانوا أشدّ جزعاً من شعر عبد الله بن رواحة؛ لأنه كان يُعيرهم بالكفر .

وهنا نلمس أثر الإسلام في تبديل القيم التي تقوم عليها معاني الشعر؛ فقد أصبح العرب حين أسلموا يرون الكفر مذمّةً أمرّ من قعود الحسب وغموض النسب؛ ومعنى ذلك: أن الشعر أصبح في نظر الجمهور الذي يستمع إليه مرتبطاً بالدين والأخلاق؛ وقد وضّح التنزيل الحكيم الفرق بين هذين

النوعين بجلاء تام؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿ وَأَنَّهُمْ

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ؛ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ ﴿٢﴾ . (١) . ٢ .

....

يُروى أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : هل تروى
لشاعر الشعراء ؟ ؛ فقال ابن عباس : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ ؛ قال عمر : ابن أبي
سلمى ؛ قال ابن عباس : وبم صار كذلك ؟ ؛ قال عمر : لأنه لا يتبع حُوشَى
الكلام ؛ ولا يُعَاضِلُ في المنطق ؛ ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه .

فُعمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَدَّمَ زُهيراً على سائر الشعراء ؛ لسبيين :

أحدهما يرجع إلى المعاني ؛ والآخر إلى الصياغة .

فأما السبب الذي يرجع إلى المعاني : فهو أنه لا ينسب إلى ممدوحه فضائل

ليست فيه ؛ فهو يتحرى الصدق في مدحه ؛ على خلاف مُعظم الشعراء . وبهذا

نرى صُورَةَ من النَّقْدِ الأخلاقيِّ في نقد الشعر .

وأما السبب الذي يرجع إلى الصياغة ؛ فوضوح ألفاظه وتراكيبه ؛ وهذا السبب

وثيق الصلة بالسبب الأول ؛ فالشاعر الصادق الذي لا يتكلف في معانيه ؛ حَرِيٌّ

ألا يتكلف كذلك في ألفاظه ؛ والشعر الذي يؤدي رسالةً تعليميةً ؛ حَرِيٌّ أن يكون

واضحاً كي يفهمه النَّاسُ .

ونستطيع أن نقول أيضاً: كان عمر - رضى الله عنه - يرى أنه لابد من توافر عنصرين أساسيين فى الشاعر المجيد؛ وهما:

١ - الصدق الفنى.

٢ - قوة الأداء التعبيرى: وهى تكمن فى جزالة الألفاظ من جهة؛ وفى سهولتها ويسرها من جهة أخرى.

وكما كان عمر - رضى الله عنه - يستحسن شعر زهير؛ كان يستحسن هذا البيت لسحيم:

عُمَيْرَةَ وَدَّعَ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيَا

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

والمعنى الدينى الأخلاقى أكثر ظهوراً فى هذا البيت؛ مع سهولة واقتصاد فى الأسلوب .

وقد تحدث عمر مرة مع وفد غطفان؛ فقال: أى شعرائكم الذى يقول:

أَتَيْتَكَ عَارِيَا خُلُقًا ثِيَابِي

عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِي الظُّنُونُ !!

قالوا: النابغة .

قال: فأى شعرائكم الذى يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

قالوا: النابغة .

قال: فأى شعرائكم الذى يقول:

فإنك كالليل الذى هو مذكرى

وإن خلت أن المتأى عنك واسع

قالوا: النابغة .

قال: هذا أشعر شعرائكم .

وها هنا نجد سؤالاً يفرض نفسه:

لماذا وصف عمر - رضى الله عنه - زهيراً بأنه أشعر الشعراء ؛ بينما وصف النابغة بأنه أشعر شعراء قبيلته وحسب ؛ هذا مع كون النابغة أشد إبداعاً وأقوى مُعجماً مع سلاسة وجمال الألفاظ فى ذات الوقت ؟!! .

الذى ترجح عندى بعد التأمل ؛ أن عمر - رضى الله عنه - كان يدرى هذا الذى ذكرت ؛ ولكنه كان يحتفى بظاهرة الصدق الفنى فى شعر زهير ؛ فالصدق الفنى عنده هو الأصل الأول والأعظم من بين أصول النقد الأدبي جميعها ؛ فإذا توافر الصدق مع الإجابة ؛ وجب تقديم صاحبهما على من يفقد الصدق الفنى فى شعره وإن كان أقوى من جهة الإبداع الشعرى .

....

عاش النقد الأدبي حتى منتصف القرن الهجرى الأول مرحلة يمكن أن تُسمى بأنها مرحلة المراهقة فى النقد الأدبي ؛ فقد تمثل حتى هذا التاريخ ؛ فى الملاحظات اليسيرة ؛ والمقاييس والأصول التى تقف دائماً خلف الأبواب ؛ ولا تقترب من الجوهر واللباب .

نعم ؛ كانت هذه هي حال النقد الأدبي في النصف الأول من القرن الهجري الأول ؛ غير أن الأمر تغير كثيراً في أواخر هذا القرن ؛ فارتقى النقد الأدبي بصورة واضحة ؛ وكثر الخوض فيه ؛ وأقبل الناس عليه ؛ وأصبحت الموازنة بين الشعراء ؛ بمثابة الظاهرة التي تميز هذه المرحلة من مراحل النقد الأدبي العربي ؛ بل من الممكن لنا أن نصف هذه الفترة الزمنية بأنها : بداية النقد الأدبي الصحيح .

ولهذا الأمر عدة أسباب :

- الأول : ازدهار الشعر في هذه المرحلة ؛ فقد ظهر شعراء جدد ؛ عاشوا في بيئات مختلفة ؛ وكانت لهم نزعات متباينة ؛ فهذا عمر بن أبي ربيعة في مكة ؛ والأحوص وعبد الله بن قيس الرقيات في المدينة ؛ وجميل ابن معمر وذو الرمة في البادية ؛ وجريز والفرزدق في العراق ؛ والأخطل في بلاد الجزيرة ؛ والكميت الأسدي في الكوفة ؛ والطرماح بن حكيم وعدي بن الرقاع في الشام .

خمدت جذوة الشعر العربي في النصف الأول من أول قرن هجري ؛ فلما قام هؤلاء ؛ أضاء الشعر وأنار ؛ وحدثت نهضة عبقرية في فن القصيد ؛ وانعكس هذا - بلا ريب - على مجال النقد الأدبي .

- الثاني : كثرة بيئات النقد ؛ سواء في الحواضر الإسلامية ؛ أو في البادية .

- الثالث : رجوع العصبية العربية إلى عهدها الجاهلي ؛ بل كانت أشد وأعتى ؛ فكثرت الأهاجي والمناقضات .

- الرابع : انتشار حياة اللهو والغزل والعشق والهوى ؛ وأصبح لكل شاعر من شعراء هذا الميدان منزعه وأتجاهه ؛ وتعددت المشارب والميول .

هذه الأسباب وغيرها ؛ تضافرت وهيأت لقيام النقد الأدبي بصورة أضخم وأعظم .

أشاد النقاد بأمور جديدة ما التفت إليها من سبقوهم .

فمن جهة الصياغة ؛ أن تكون أعاريض الشعر موسيقية ؛ ذات نغم مؤثر .
ومما عابوه في الشعر وقدحوا في شاعريته صاحبه ؛ أن تكثر أسماء الأماكن والمواضع .

وهكذا ؛ دقت عبارات النقد ؛ وخلا من الأحكام العامة الغامضة ؛ وأصبح التعليل والتفسير هو الدليل على فهم الناقد وقوة حسه وذوقه ؛ بل لقد جاوز النقد بنية الشعر ومعانيه إلى نقد الشعور والعاطفة .

وهكذا يتبين لنا : أن تعدد المذاهب الأدبية واختلاف اتجاهاتها ؛ يؤدي إلى ظاهرة إيجابية ؛ وهي تحريك القدرات النقدية الكامنة في عقول النقاد .
فبينما نجد من يعجب بمذهب عمر بن أبي ربيعة ؛ ويقول : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ؛ ووقع هو عليه .

نجد ناقدًا آخر يأخذ على عمر أنه يسبب بالمرأة ثم يدعها ؛ وينسب بنفسه ؛ فهو يذكر نفسه في غزله أكثر من ذكره للنساء !! .

